



جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

مجلة العلوم الإنسانية

خفاف

مجلة علمية محكمة



العدد الثالث - 2019

صفاف

مجلة علمية محكمة

العدد الثالث - 2019

مجلة فصلية علمية ومحكمة تصدرها كلية الآداب والعلوم الإنسانية
بجامعة القاضي عياض - مراكش - المغرب

المدير : عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية
عبد الرحيم بنعلي

المنسق العام : جمال راشق

اللجنة العلمية

السيدات والسادة الأساتذة:

GRAVARI BARBAS Maria, IREST, Université Paris 1 Panthéon-Sorbonne, France, **ELLOUMI Mohamed**, INRAT, Tunisie, **LAOUNA Abdellah**, CERGé, Université Mohamed V Rabat, **DEARBIEUX Bernard**, Université de Genève, Suisse, **NAVARRO PALAZON Julio**, Escuela de Estudios Arabes des Granada, CSIC, Espagne, **SKOUNTI Ahmed**, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, **GIRAUT Frédéric**, Département de Géographie, Université de Genève, Suisse, **HERNANDEZ ARMENTEROS Salvador**, Universidad de Granada, Espagne, **BOUBRIK Rahal**, Département de Sociologie, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Mohamed V de Rabat, **TOZY Mohamed**, UMRVIP et Sciences po, Aix en Provence, France, **PULVAR Olivier**, Université Antilles-Guyane, Centre de Recherche sur les Pouvoirs Locaux dans la Caraïbe – CNRS UMR 8053, **HILLALI Mimoun**, Institut Supérieur International de Tourisme, Tanger, Maroc, **PERALDI Michel**, directeur de recherche au CNRS et Centre Jacques Berque pour le développement des Sciences Sociales à Rabat (Maroc), **BOUMAZA Nadir**, Université Pierre MENDES France- Grenoble 2, **LANDEL Pierre – Antoine**, CERMOSEM, UJF, Mirabel – France, **PECQUEUR Bernard**, Institut de Géographie Alpine, PACTE (UMR CNRS 5194 – Université J. Fourier, Grenoble – France).

لجنة التحرير

السيدات والسادة الأساتذة

ثريا بركان- جمال راشق- خديجة الزاهي- سعيد بوجروف
عبد الرحيم بنعلي - محمد موهوب

عناوين التواصل

كلية الآداب والعلوم الإنسانية، صندوق بريد 3737

أمرشيش - 40000 مراكش - المغرب

الهاتف : 00212524302742 الفاكس : 00212524302039

البريد الإلكتروني : revueflm@gmail.com الموقع : http://www.flm.uca.ma.ac

الايداع القانوني: 2018PE0010

ردم: 2605-6410

لوحة الغلاف للفنان ماحي بنين

تعبر المقالات عن آراء أصحابها فقط

صفاء

مجلة العلوم الإنسانية

مجلة 'صفاء' كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش

شروط النشر

- مجلة ضفاف مجلة علمية محكمة تعنى بنشر الأبحاث والأعمال التي تدخل في مجال العلوم الإنسانية.
- مجلة فصلية.
- تنشر المجلة مقالات ودراسات وأبحاثاً أصلية لم يسبق نشرها ولا تقديمها للنشر.
- تخضع الأعمال المقترحة للنشر لشروط البحث العلمي المتعارف عليها من حيث التوثيق وذكر المصادر والمراجع المعتمدة.
- تعبر الأبحاث المنشورة بالمجلة عن آراء أصحابها.
- تقدم الأبحاث في نسخة مطبوعة ونسخة إلكترونية.
- تلتزم المقالات بالمعايير التقنية للنشر بالمجلة، فتكتب المقالات العربية بخط 14 Sakkal majalla والمقالات بالحرف اللاتيني بخط 11 Times New Roman.
- تكتب الهوامش أسفل الصفحة بخط 10 Times New Roman.
- ينبغي ألا تزيد صفحات البحث عن 20 صفحة..
- يذكر الباحث اسمه واسم بنية البحث والجامعة-المؤسسة التي ينتمي إليها في الصفحة الأولى.
- يقدم الباحث ملخصاً لبحثه مستقلاً عن المقال.
- يكتب ملخص للبحث بلغة غير اللغة التي كتب بها.
- تخضع المقالات والبحوث المقدمة للمجلة للتحكيم، ويلتزم الباحث بإجراء التعديلات التي يقترحها المحكمون في أجل أقصاه 15 يوماً بعد توصله بها.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في عدم نشر أي بحث لا يستجيب لشروطها.
- لا ترد الأبحاث إلى أصحابها نشرت أو لم تنشر.
- تحتفظ المجلة بحقوق التأليف وإعادة النشر الورقي أو الإلكتروني للمقالات المنشورة بها.
- المقالات المقدمة للنشر لا يجب أن تنتهك حقوق مؤلفين أو ملكية أطراف آخرين.



مجلة العلوم الإنسانية

مجلة علمية محكمة

العدد الثالث - 2019

إصدار كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة القاضي عياض - مراكش - المغرب

شكر

تتقدم هيئة تحرير مجلة "خفاف" للعلوم الإنسانية
بخالص تشكراتها لكل من ساهم في إغناء هذا العدد،
كما توجه شكرها الجزيل للأساتذة الأجلاء الذين لم
يتروا في قراءة المقالات وتقييمها وتعيمها.

هيئة التحرير

فهرس المحتويات

9.....	كلمة العدد
	عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية
11.....	تقديم
	عبد اللطيف البرنسي ومحمد الخداري
13.....	أنهار المغرب القديم من خلال المصادر القديمة
	عبد اللطيف البرنسي
23.....	توطین المدن المغربية التاريخية وعلاقتها بالنهر: محاولة في الجغرافيا التاريخية
	أحمد الحلاسي
47.....	النهر في الاستراتيجية العسكرية السعدية : واد المخازن أنموذجا
	توفيق محمد القبائي
65.....	المدن الواحية : تأثير التعمير ونمط العيش على البيئة بتزنت
	محمد مسكيت وخديجة الزاهي
85.....	مظاهر الهشاشة بالمجال الواحي المغربي، حالة واحات إقليم كلميم
	لحسن بلالي، صلاح الدين طبلاط، عبد القادر اسباعي، خلف الغالي
103.....	التقارب الثقافي الاسلامي الألماني "جوته أنموذجا"
	مولاي الصديق سلاح الحق

- الذاكرة الجمعية الاستهلاكية دراسة في سوسيلوجية الاستهلاك والتبضع
بالمساحات التجارية الكبرى بمراكش 121
- يوسف زكار
- الفلسفة والتقليد السحري بالأندلس : المجريطي ومدرسته 145
- محمد البوغالي
- الاقتضاء والحساب المنطقي للدلالة عند فريجه 175
- سعيد النكر
- شلاير ماخرو إشكالية بناء قانون للثيولوجيا 201
- حمادي هباد
- الأحكام المسبقة والوعي التاريخي عند هانز غيورغ غادامر 227
- أحمد الفرحان

كلمة العدد

يسعدنا أن نقدم لجمهور القراء الأعزاء العدد الثالث من مجلة ضفاف التي تصدر عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش، وهو عدد حافل بالمقالات العلمية الغنية والمتميزة، والتي حرصت هيئة تحرير المجلة ولجنة قراءتها على أن تعمل ما في وسعها لكي تخرج المجلة لعموم الباحثين من طلبة وأساتذة ومهتمين في أحسن حلة .

ونغتتم فرصة صدور هذا العدد، لنعرب عن تقديرنا البالغ للمجهودات التي تبذلها لجنة التحرير مشكورة، في مختلف مراحل إعداد وإخراج هذا المشروع العلمي الطموح سواء تعلق الأمر باختيار وانتقاء المادة العلمية، أو عمليات طباعة ونشر كتيبه، مقدرين حرصها على الأصالة العلمية، واحترام ضوابط النشر.

إن النهج الأكاديمي المتبع، والخط التحريري الملتزم به، لمن شأنهما أن يكسبا هذه المجلة، ومن خلالها المؤسسة التي تنتهي إليها، حظوة كبيرة بين جبهة الباحثين، وأن يرقيا بها إلى مصاف الإصدارات العلمية المتميزة ليس على الصعيد الوطني والعربي فحسب بل على المستوى الدولي، إذا ما أخذنا بعين الاعتبار المكانة التي تحظى بها جامعة القاضي عياض إفريقيا ودوليا. ويعود الفضل في كل ذلك إلى تضافر جهود الأساتذة والإداريين والتقنيين، فلهم منا جميعا جليل الشكر والثناء.

ويطيب لي أن أوجه تقديري كذلك للسيدات والسادة الأساتذة الباحثين الذين أغنوا هذا العدد بمساهماتهم العلمية القيمة، سواء المنتمين إلى كليتنا أو العاملين بمؤسسات جامعية أخرى، موجها الدعوة للجميع من أجل تجديد المشاركة وإغناء الأعداد المقبلة بدراساتهم وأبحاثهم، كما لا تفوتني الفرصة دون أن أوجه طلبتنا الباحثين الشباب في سلك الدكتوراه من أجل الانخراط الجدي في الإنتاج العلمي، وبلورة مشاريعهم البحثية في مقالات، تستجيب للمتطلبات العلمية والفنية التي يسعى هذا المنبر إلى نشرها.

لقد حرصنا أشد ما يكون الحرص على أن يصدر هذا العدد كسابقه، مستوفيا للشروط والضوابط العلمية والفنية، ولما بمختلف التخصصات المعرفية في العلوم الإنسانية. ومن جهة ثانية أن تكون محتويات هذا العدد وفقا للمسار الذي رسمناه جميعا للمجلة باعتبارها منبرا للقراءات والمقاربات المنهجية والدراسات الجادة التي يقترحها مختلف الباحثين المتخصصين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، ومما زادنا سرورا وغبطة كون

الأبحاث التي يتضمنها هذا العدد، سواء المقدمة باللغة العربية أو الفرنسية، تطرح مجموعة من القضايا المعرفية والمنهجية، كما تطرح بعض المقاربات الاستمولوجية، إضافة إلى المقترحات العلمية والتطبيقية في ميادين متعددة تعنى بالإنسان والمجال الطبيعي بكل أنماطه الاقتصادية والاجتماعية والبيئية. وهي مساهمات علمية رصينة لمختصين بارزين وباحثين شباب في الجغرافيا والتاريخ وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا والفلسفة.

أملنا أن يجد القارئ الكريم ما يشبع نهمه العلمي ويغذي زاده المعرفي من خلال المواد المنشورة، وسعينا كذلك أن نكون قد أسهمنا في مواصلة بلورة الهدف النبيل الذي تنشده مجلتنا، حتى تكون منبرا علميا جديرا بالتقدير، يجد فيها الباحثون ضالهم، ويتحقق من خلالها الإشعاع الكبير لمؤسستنا ولجامعتنا.

والله ولي التوفيق

عميد الكلية

ذ. عبد الرحيم بنعلي

تقديم

لعب الماء دورا مهما في نشوء الحضارات وفي تطور المجتمعات الإنسانية، وبالرجوع إلى اهتمامات الباحثين بموضوع الماء نلاحظ أن ظهور الإيكولوجيا كحقل معرفي سمح، ومنذ مؤسسيه الأوائل أمثال (Jean- Baptiste Lamarck - Alexander Von Humboldt)، لباحثين من حقول معرفية مختلفة بالوقوف عند أهمية الماء ومعالجة قضاياها انطلاقا من اعتباره عنصر اندماج الإنسان في بيئته.

أفضت هذه الدراسات والأبحاث إلى اعتبار الماء عنصرا فعالا وبنويا في العلاقات المجتمعية والإقليمية والدولية، وضروريا في بناء السياسات العمومية. تعامل المجتمع المغربي، كباقي المجتمعات، عبر حقه التاريخية مع عنصر الماء في حل كثير من قضاياها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

يصعب جدا تناول موضوع "الماء" في يوم دراسي أو في لقاء علمي واحد، بل لا بد من تنظيم حلقات ولقاءات دراسية متتالية. وارتأت شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية جامعة القاضي عياض ومجموعة البحث: "الماء : التاريخ والتراث"، المنتمية لمختبر "المغرب والحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط: التاريخ - التراث- الموارد"، ومختبر "الجبال الأطلسية : المجالات الترابية والتنمية المستدامة"، أن يكون أول موضوع في سلسلة هذه الحلقات هو "النهر في تاريخ المغرب" من خلال عقد ندوة وطنية يومي 30- 31 ماي 2013 م برحاب كلية الآداب والعلوم الإنسانية مراكش، من خلال محورين أساسيين:

- المحور الأول : النهر والاستقرار، الذي ركز على دور الأنهار في استقطاب واستقرار

الإنسان وفي تطور التجمعات السكنية والمدن.

- المحور الثاني: النهر والأنشطة الاقتصادية، الذي عالج ارتباط بعض جوانب النشاط

الاقتصادي بالأنهار.

لم تقتصر مداخلات الزملاء السادة الأساتذة المشاركين في الندوة على المحورين المذكورين، بل شملت مواضيع أخرى عالجت موضوع النهر من خلال مقاربات مختلفة في أربع جلسات :

- أسطوغرافية النهر بالمغرب.

- النهر والتجمعات السكانية.

- النهر : الاقتصاد والمجتمع.

- النهر بالمغرب: تاريخ وتراث.

وننشر في مجلة ضفاف للعلوم الإنسانية بعض مداخلات الندوة التي توصلت بها هيئة تحرير المجلة، والبعض الآخر سبق أنه نشره السادة الأساتذة في مجلات متخصصة.

ذ. عبد اللطيف لبرنسي

ذ. محمد الخداري

النهر في الاستراتيجية العسكرية السعدية

وادي المخازن أنموذجا¹

توفيق محمد لقبايي

جامعة القاضي عياض ، مراكش

Résumé

Le but de cet article est d'analyser la stratégie militaire suivie par la dynastie Sâadienne à travers l'utilisation du fleuve dans la bataille d'Oued Al Makhazine.

Cette bataille décisive ayant mis fin au projet portugais d'invasion du Maroc. Elle eut lieu sur les rives du fleuve d'Oued Al Makhazine, affluent du Loukos. Alors, afin de comprendre le déroulement de cette bataille et la méthode suivies par les Saadiens pour réaliser une telle victoire ; nous l'avons étudié à travers :

- 1 – Mettre cette bataille dans son cadre historique international et local.
- 2 – Etudier les différents mécanismes directs qui ont contribué à cette victoire, qui sont à notre avis trois éléments.
 - Comprendre la topographie et le climat des lieux de la bataille.
 - Savoir utiliser les éléments d'approvisionnement et adopter un bon service de renseignements.
 - les éléments précédents ne suffisent pas sans la présence d'un commandement militaire vétéran, principalement responsable de l'élaboration d'une stratégie précise pour mener la guerre.

La stratégie du fleuve s'est révélée efficace contre les forces portugaises, qui sont complètement vaincues le 4 Aout 1578. Cette victoire Sâadienne n'était pas une simple coïncidence mais une tactique bien calculée qui parvient à exploiter la rivière dans leur stratégie militaire.

Farouche, régulière et violente ; La bataille d'Oued Al Makhazine vit trois rois mourir l'un après l'autre : Le roi Dom Sébastien dont la dépouille gît sur le champ de bataille, alors qu'il tentait de prendre fuite ; Le roi déchu Mohamed Al Mutawakil trouve la mort en se noyant dans le fleuve ; très affecté par sa maladie Abdel Malik Al Mutassim, le roi triomphant décède sur son lit et fut remplacé par son frère Al Mansur, surnommé addahbi (le doré) après cet événement fracassant.

1 موضوع مداخلة في ندوة "النهر في تاريخ المغرب"، بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش يومي 30-31 ماي 2013.

مقدمة

الأنهار هي شرايين الحياة بكل ما تحمله الكلمة من معنى، صغیرها قد يكون حاضناً لقریة صغیرة، وكبیرها قد يكون مهداً لحضارة كاملة. فعلى ضفاف الأنهار قامت المستوطنات البشرية الأولى منذ ما قبل العصر الحجري القديم، ولا تزال هذه الضفاف إلى اليوم من أبرز مقومات الحياة في معظم عواصم العالم وأحدث مدنه.

لعبت الأنهار ولا تزال دوراً لا بديل عنه للشرب والصید والفلاحة والسفر والبناء والصناعة، كما لعبت في الآن ذاته دوراً حاسماً في الحرب، إذ أن الأنهار، بما فيها من تعرجات وسهول تغمرها الفيضانات، قد تسبب في مشاكل تكتيكية عسكرية وهندسية جمة للطرف المنهزم، وفي الوقت ذاته قد يستغل الطرف المنتصر طبوغرافيتها لإحراز نجاحات مہرة في ساحة الوغى. وعليه ما هي الأدوار التي لعبتها الأنهار في رسم سياسة السعديين؟ وكيف تمكنوا من استغلال هذه الأنهار في خوض العديد من الحروب الفاصلة في تاريخهم؟

1. ملاحظات عامة

نود في بداية هذا المقال إبداء ملاحظتين، وهما:

الأولى: أننا لن نقوم من خلال هذه السطور باجتراح فصول هذه المعركة لتفادي ظاهرة التكرار والزج بالقارئ في متاهات من الروايات والسرد وإعادة ما قيل¹.

الثانية: تتعلق بالحضور المكثف للنهر في تاريخ المغرب السعدي؛ فمن خلال استقراء إستوغرافية الفترة يتبين ومن خلال بعض الإشارات التاريخية أن النهر في التاريخ السعدي لم يعد دوره يقتصر على الري والصناعة والنقل، بل تعداه إلى استعمالات أخرى سياسية وحربية، وسنبين ذلك من خلال بعض النماذج:

➤ النموذج الأول : أن النهر اتخذ كمنطقة لالتقاء المتنازعين على الحكم لفض نزاعاتهم، فقد تمكن الشيخ المرابط رجال البودالي الزمراني المعروف بالكوش، من أن يجمع بين الأخوين أحمد الأعرج ومحمد الشيخ لإصلاح ذات البين بينهما عقب تحرير ميناء سانتا

1 ظهرت حول معركة وادي المخازن العديد من الدراسات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- شحاتة حسن، إبراهيم، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، 1979.
- نكروف، يونس، معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة، منشورات عويدات، بيروت - باريس، 1978.
- عدد خاص عن معركة وادي المخازن بمناسبة مرور 400 سنة على هذه المعركة بمجلة دعوة الحق، السنة 19، العدد 8، 1978.

كروز سنة 1541م، وكان هذا اللقاء على ضفاف وادي إيسيل أو العزير حسب ديبغو دي طوريس، غير أن مساعيه باءت بالفشل¹.

➤ **النموذج الثاني :** أن النهر في التاريخ السعدي، اتخذ كوسيلة لرسم الحدود السياسية، ففي سنة 1534م وفي غمرة الصراع السعدي الوطاسي حول النفوذ بالمغرب، سيتدخل الصلحاء والفقهاء لحقن دماء المسلمين في صلح أنماي، على أساس قسمة البلاد بالتراضي بين أحمد الأعرج وأحمد الوطاسي، وجعل وادي أم الربيع حدا فاصلا بين ممتلكات السعديين في الجنوب وممتلكات الوطاسيين في الشمال².

اتخذ النهر كذلك كوسيلة لرسم الحدود بين المغرب وجيرانه الشرقيين (العثمانيون)، ففي سنة 1552م، توصل محمد الشيخ السعدي برسالة من طرف سليمان القانوني حملها سفيره أبو عبد الله محمد بن علي الخروبي الطرابلسي تتناول موضوع إقامة هدنة بين المغرب وإستانبول في أعقاب الصراع حول مدينة تلمسان، ومن ضمن ما اقترحه السلطان العثماني مسألة رسم الحدود بين الدولتين على أساس أن يكون وادي ملوية هو الحد الفاصل بينهما³.

➤ **النموذج الثالث :** أن النهر في التاريخ السعدي كان مجالا لإجراء التدريب والمناورات التطبيقية للجيش المزمع إرسالها إلى جبهات القتال، ومن ذلك مثلا أنه في سنة 1589م تم اختيار وادي تانسيفت قرب مراكش كميدان للتدريب على الحملة السعدية المزمع إرسالها إلى السودان الغربي، وذلك للتشابه التضاريسي والمناخي بينه وبين نهر النيجر؛ وعلى ضفاف وادي تانسيفت كذلك استعرض المنصور الجيش السعدي بقيادة جوذر باشا قبل أن يأخذ طريقه نحو السودان في 10 نونبر 1589م⁴.

1 مارمول، كاربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد زنبير ومحمد الأخضر وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون، الرباط، 1989، ج.1، ص. 461-462.

2 دي طوريس، ديبغو، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، سلا، 1988، ص. 78.

3 مجهول، تاريخ الدولة السعدية التاگمادارية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش، 1994، ص. 14 - 15. يقول : « اتفق رأي القوم على عقد الصلح بين السلطانين المريني والدرعي، فعدوه على قسمة البلاد بينهم فقسموها من وادي أم الربيع إلى أطراف سوس للشرفاء، ومن وادي أم الربيع إلى رباط تازي للمريني ... إلا سجلماسة جعلوها من عمالة فاس وجعلوا درعة لمولاي محمد إذ هي بلاده وناحيته وكتبوا بذلك سجلا ... وأمر المريني التجار أن يسافروا إلى مراكش ومن ضاح له شيء من أم الربيع إلى مراكش فضمنه على الشرفاء ومن ضاح له شيء من أم الربيع إلى فاس فضمنه على المريني، وانعقد الصلح على ما ذكر فتهذبت الأوطان ».

4 انظر نص الرسالة في كتاب محمد علي الصلابي : الدولة العثمانية، بيروت، ص. 246؛ ونص هذه الرسالة الأصلي محفوظ بخزانة قوغوشلر بإستانبول، دفتر الأمور المهمة.

4 الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي بالسودان الغربي، بغداد، 1982، ص. 212.

ويطلعنا المؤرخ أبو فارس الفشتالي على جانب من تلك المناورات مما يضيف كثيرا من الأضواء على ذلك النوع الخاص من التدريب : « فهي تصلي نار الحرب، وترمي بالمازق الجلال، للدرية بها، وارتياضا على صدق =

➤ النموذج الرابع : أن النهر كان مجالا لخوض مجموعة من المعارك الحاسمة في التاريخ السعدي، ففي سنة 1558م أفشل عبد الله الغالب محاولة العثمانيين الرامية إلى غزو المغرب، وهزم الأتراك في معركة وادي اللين شمال مدينة فاس. كما تمكن عبد الملك السعدي سنة 1576م من هزم قوات ابن أخيه المتوكل في معركة خندق الريحان على وادي شراط حاليا¹، ليتمكن بعدها من دحر الجيوش البرتغالية في معترك وادي المخازن، وهو موضوع هذا المقال.

2. معركة وادي المخازن: الميكانيزمات والآليات المباشرة لتحقيق النصر.

تظل معركة وادي المخازن التي وقعت في القرن العاشر الهجري/ XVI م حدثا تاريخيا غنيا بدلالاته، فقد تعددت أسماء المعركة في الإستوغرافيا المغربية، مثل : معركة وادي المخازن. معركة الملوك الثلاثة. معركة القصر الكبير. وهذه الأسماء هي تلك التي درج على استعمالها المؤرخون المغاربة في كتاباتهم، وربما خطر لبعض المؤرخين المعاصرين أن يسموها بدافع تصحيح جاء متأخرا عن موعده بـ "معركة الملوك الأربعة"، لأنها إضافة إلى الملوك الثلاثة الذين ذهبوا ضحايا لها، كانت منطلقا لبروز ملك رابع سطع نجمه عالميا ألا وهو أحمد المنصور الذهبي².

إن الحديث عن وقعة تاريخية في حجم معركة وادي المخازن، يستوجب بالتأكيد وضعها ضمن إطارها التاريخي العام، الذي يتضمن منهجيا ضرورة النظر إليها بشكل قبلي ضمن سياقها الجيو - استراتيجي، على أساس أن الظروف الدولية التي كانت سائدة خلال تلك الفترة كان لها دورها في توجيه مسار عدد من الأحداث السياسية والعسكرية بحوض البحر الأبيض المتوسط.

فلقد عرفت منطقة شمال إفريقيا في النصف الثاني من القرن XVI م مجموعة من المتغيرات السياسية والاقتصادية لم تكن لتستثنى منها عدد من الدول المطلة على ضفتي

= المصاع في ضنك المواقف وخوض غمرات الهيجاء، وبعيدا عن الإخلاء إلى الراحة والسكون وإلى الدعة، لما يؤدي إليه ذلك من وهن عزائمها ولين عرائنها ... عند الحاجة إليها». وكان الجيش يدرب على « تعبئة الحروب ومكاندها وآلاتها وخدعها وأنواعها والحصار وآلاته والرمي وأدواته و معرفة أنواع مدافع القذف والرجم... وكيفية عملها طولا وقصرا... إلى البعد أو القرب أو إلى السماء أو إلى الأرض... مما تقتضيه السياسة العلمية» أنظر :

- الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا على مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط، 1972، ص. 126 و 238.

1 DE CASTRIES (H), RICARD (R), DE LA VERONNE (Ch), DE CENIVAL (P) et LOPES (D) : *les Sources Inédites de l'histoire du Maroc, Espagne*, T. II, p. 445.

2 زنبير، محمد، معركة الملوك الثلاثة، مذكرات من التراث المغربي، الجزء الثالث : من تمتين الدولة إلى المخاطر، ص. 174.

البحر الأبيض المتوسط الشمالية والجنوبية. ذلك أن الظروف الإقليمية التي مهدت لمعركة وادي المخازن اتسمت بالصعوبة والحساسية، لاسيما بعد دخول الإمبراطورية العثمانية سلسلة من المواجهات العسكرية ضد الأوروبيين¹، والتجاء هؤلاء الأخيرين إلى عقد سلسلة من التحالفات بقصد الاستيلاء على مناطق من شمال إفريقيا، إضافة إلى وضع حد للهيمنة العثمانية الرامية إلى استغلال المراسي المغربية الأطلسية ومرسى العرائش بوجه خاص²؛ وقد شكل هذا المرسى الذريعة التي استخدمها البرتغاليون لتبرير حملتهم على المغرب بدعوى أن العثمانيين كانوا جادين في احتلالها مهما كان الثمن، ولعل هذا هو السبب المباشر في قيام دون سباستيان بتجيش الجيوش وإعداد العدة والمؤونة الكافية للقيام بحملة على المغرب، فأبحرت السفن البرتغالية من لشبونة باتجاه الشواطئ المغربية يوم 24 يونيو 1578، لتصل إلى طنجة في 9 يوليو.

إن أهم عنصر سنحاول التطرق إليه في هذه المعركة، هو فهم الميكانيزمات والآليات المباشرة التي أسهمت في تحقيق النصر في هذه المعركة، وهي - في نظرنا - ثلاثة عناصر:

➤ **العنصر الأول :** هو فهم طبوغرافية الرقعة الجغرافية التي عرفت فصول هذه المعركة، فضلا عن نوعية المناخ السائد بالمنطقة (سيرا على نهج فيرناند بروديل في هذا الباب)، وهي معطيات غالبا ما تشير إليها مختلف الدراسات التي تهتم بالتأريخ للمعارك والبحث ضمن فصولها ومجرياتها ضمن إستراتيجية معينة، تنطلق من معرفة المجال ومكان القوة والضعف فيه، أي تحديد مستوى العلو والانبطاط.

1 خاض العثمانيون معارك كثيرة ضد الأوروبيين وفي جبهات متعددة بالبحر الأبيض المتوسط، كان آخرها انهزامهم أمام الأوروبيين في معركة ليبانتو Lépante سنة 1571م، مما أكسب الأوروبيين ثقة بالنفس، فأخذوا يتطلعون إلى تحقيق انتصارات أخرى عملا بقاعدتهم التي تنص على «... أن ما استأثر به الصليب و اغتصبه من الهلال لا يرد، وإن ما حازه الهلال أو ضمه إليه وأخذ منه تتحت إعادته...» وهو ما أسموه بسياسة Reconquista. أنظر: - الجيالي، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، بيروت، ج. 3، 1980، ص. 98.

2 كان مشروع دون سباستيان هو الاستيلاء على مدينة العرائش لموقعها الاستراتيجي في حركة الملاحة والتجارة المارة بالساحل الأطلسي للمغرب إلى غرب إفريقيا، لذلك لم يأبه إلى نصائح خاله فيليب ولا حتى أقرب مقريه معتبرا أن احتلال هذه المدينة سيضع حدا للأطماع التركية عليها، خصوصا وأن الأتراك العثمانيين كانوا قد تلقوا وعدا من عبد الملك المعتصم بالترخيص لهم باستخدام مرسى هذه المدينة لأغراض عسكرية وربما التنازل عنها، مقابل تقديم الأتراك المساعدة لعبد الملك في مواجهة ابن أخيه أحمد المتوكل، وحتى يحتفظ العثمانيون بسند لتعهدات عبد الملك سوف يترك هذا الأخير زوجته وابنه إسماعيل كرهينتين في الجزائر إلى حين تنفيذ الاتفاق كاملا. أنظر :

- S.I.H.M, Angleterre, Vol. I, p. 163.

والرجوع كذلك إلى :

- إبراهيم شحاتة حسن، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، الدار البيضاء، 1979، ص. 202.

➤ **العنصر الثاني والجوهري في الحرب :** هو الاستفادة من عناصر التموين وغيرها من مستلزمات خوض المعارك باعتماد المخابرات الجيدة، لأن كسب أي حرب هو نتيجة "معرفة مسبقة أو قبلية أو استخباراتية" لرصد أي حركة من حركات الخصم في أكثر من مكان ومناسبة، ولأن معرفة العدو ومعرفة إمكانياته تفيد في وضع الخطط وإيجاد سبل التموين واختيار التوقيت المناسب وسبل استدراجه.

➤ **العنصر الثالث :** أن هذه المعطيات الميدانية والمعنوية لن تكتمل إلا بوجود قائد عسكري محنك، يكون مسؤولاً بالدرجة الأولى على وضع استراتيجية دقيقة لخوض الحروب وفك الحصار وتدريب جيشه على ذلك، ويتبين من خلال حديث صون تزو SUN - TZU في كتابه *فن الحرب على الطريقة الصينية*، على أن القائد المثالي « يجب أن يمتلك خبرة واسعة ومعرفة ومهارات أخرى من أرفع المستويات في العلوم والفنون بجميع تخصصاته »¹. فإلى أي حد تنطبق هذه الأوصاف على بطل هذه الملحمة السلطان عبد الملك السعدي؟

لقد حظي عبد الملك المعتصم بثناء مصادر الفترة عليه وخصوصا الأوروبية منها، من جملة ذلك ما قاله الفرنسي أكريب دو بيني (1552 . 1630م) - وهو رجل حرب وكاتب وشاعر معاصر للأحداث - في كتابه التاريخ العالمي، والذي خصص منه جزءا لمعركة وادي المخازن: «كان عبد الملك جميل الوجه بل أجمل قومه، وكان فكره نيرا، وكان يحسن اللغات الإسبانية والإيطالية و الأرمنية والصقلبية (الروسية)، وكان شاعرا مجيدا في اللغة العربية، وباختصار فإن معارفه لو كانت عند أمير من أمرائنا لقلنا أن هذا أكثر مما يلزم بالنسبة لنبييل فأحرى ملك»².

نضيف إلى هذه الأوصاف، حرص عبد الملك على تكوين نفسه تكوينا عسكريا محضا لا سيما بعد لجوئه صحبة أمه سحابة الرحمانية وأخويه أحمد وعبد المؤمن إلى الدولة العثمانية المتمركزة بجنودها في الجزائر، والكيفية التي صقل بها شخصيته عبر المشاركة في العديد من الحروب والمعارك البحرية والبرية إلى جانب العثمانيين (معركة ليبانتو 1571م³

1 صون تزو، فن الحرب على الطريقة الصينية، ترجمة رؤوف شبانيك، القاهرة، 2011، ص. 114.
2 AGRIPPA D'AUBIGNE (Théodore), *Histoire universelle*, Paris, 1873-1877, T. III, p. 904.
3 تحليل مجموعة من المراسلات الواردة في الوثائق الغير منشورة لتاريخ المغرب، المجلد الثالث، إسبانيا على السياق العسكري الخاص بمعركة ليبانتو والتي عرفت أسر عبد الملك وهو يحارب إلى جانب العثمانيين بوهرا في الجزائر وإطلاق سراحه من طرف فيليب الثاني الإسباني سنة بعد ذلك؛ وهذه مرحلة أساسية ضمن فصول حياته السياسية والعسكرية. انظر:

S.I.HM, *Espagne*, Vol. III, p. 566.

ومعركة حلق الوادي لاسترجاع تونس من يد الإسبان سنة 1574م¹؛ فضلا عن قيامه بدور فعال على الساحة السياسية الدولية لحوض البحر الأبيض المتوسط، حيث أبانت مختلف الوثائق المحفوظة بمصلحة الأرشيف بـ "سيمانكاس Simancas" عن وجود علاقات نوعية بين الأمير المغربي ومختلف ملوك أوروبا².

لقد تولى عبد الملك الحكم في المغرب في ظرفية تتسم بالصعوبة، حيث يتبين من خلال الوثائق الغير منشورة لتاريخ المغرب، وخصوصا المجلد الثالث الذي يغطي السنوات بين 1560 و 1578³؛ بأن حالة البلاد قد وصلت إلى درجة كبيرة من الإفلاس المالي والأمني والاقتصادي والاجتماعي بسبب الحروب الأهلية العشرين (20) حول العرش بين محمد المتوكل وعمه عبد الملك في ظرف لم يتعد سنتين ونصف، وقد وصف الفشتالي ذلك بقوله: «... نفقت ... أسواق الفتن وأظلم الجو ... بالهرج في سائر أقطار المغرب حتى تنمرت الرعايا واستنسر بغاتها وطغى الجند... وتعطل الخراج منذ سنين حتى نفذ الطارف والتالد... وكاد سلك الدولة ينتثر...»⁴. وانتهت هذه المرحلة بتنصيب عبد الملك سلطانا على المغرب، الذي أسند إمارة فاس في نفس الوقت إلى أخيه أحمد، وبإقصاء المتوكل الذي استنجد بالدون سياستيان بعد أن التزم أمامه بتنازلات ترابية منها تنازله له عن ميناء أصيلا⁵.

1 يمكن اعتبار معركة حلق الوادي فصلا أساسيا آخر ضمن حياة عبد الملك السياسية والعسكرية، جعلته يحصل على الثقة المرجوة والدعم العسكري العثماني للانتقال إلى المغرب ومواجهة ابن أخيه أحمد المتوكل.
2 كانت هذه العلاقات تعتمد على وسطاء كان لهم باع في مجال نقل الأخبار بحكم وظيفتهم التجارية، ونخص بالذكر هنا الإخوان غاسبار و كورسو (Gaspard et Corso) اللذان كانا يقومان بنقل المراسلات بالبحر الأبيض المتوسط خاصة منها التجارية الممزوجة بالسياسة، أي عملوا على نقل المراسلات القادمة من المغرب والقسنطينية والقارة الأوروبية. وكان مركز هذا التنظيم بقالنسبا، وقد وصلت حظوة هذين الرجلين إلى درجة أن اعتمد عليهم عبد الملك السعدي في مراسلاته واتفاقاته مع الدول الأوروبية، حيث رافقه أندريا غاسبار إلى المغرب ولازمه إلى حدود 1578م، أي سنة وقوع معركة وادي المخازن ليعود بعدها إلى إسبانيا، ويتابع اهتمامه بالشؤون المغربية، فاحتل بذلك منصب مخبر للملك فيليب الثاني بالبرتغال. انظر:

- Archives Générales de Simancas, Estado, leg. 474

3 تميزت هذه المرحلة بحكم عبد الله الغالب بن محمد الشيخ (1558-1574م)، ثم تولية ابنه محمد المتوكل بن عبد الله (1574 - 1576م)، ونشوب الصراع حول ولاية العرش ما بين هذا الأخير وعمه عبد الملك بن محمد الشيخ (1576 - 1578م).

4 الفشتالي، مصدر سابق، ص 54. وكذلك

- DE LA VERONNE, S.I.H.M, 1ère série : dynastie saadienne, T. III, 1560 - 21 Août 1578.

5 حكيم، محمد عزوز، مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن، مطبعة الساحل - الرباط، 1989، ص. 63. يقول محمد عزوز حكيم : « وطلب مولاي محمد من طاغية بردقيز أن يعينه على عمه عبد الملك، فاشترط عليه الطاغية أن يكون للنصارى سائر ثغر المسلمين وله ما وراء السواحل، فقبل منه ذلك المتوكل وأمر قائده عبد الكريم بن تودة بأن يسلم أصيلا إلى أعداء الله ورسوله، نصارى بردقيز، فقال له القائد المذكور عند السمع والطاعة وأخرج من أصيلا رجاله ودخلها جنود الكفر دمرهم الله في شهر ربيع الثاني 985 هـ موافق شهر يوليوز 1577».

وبدأت استعدادات سريعة فيما يبدو من الجانب البرتغالي لمواجهة عبد الملك المعتصم وأنصاره. وقد حاول المتوكل وهو يتحرك مع الجيش البرتغالي نحو المغرب، أن يضغط على العلماء والأشراف والصلحاء والجند مبررا سوء فعله بقوله : « ما استصرخت بالنصارى حتى عدت النصر من المسلمين »، غير أن علماء فاس وباقي أطراف المعارضة، ردوا عليه برسالة مطولة اتهموه فيها بالخيانة واستنكروا عليه فيها التحالف مع النصراني وإعطائه إياه أصيلا بلاد الإسلام مستدلين بالآية الكريمة : « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض، ومن يتولهم منكم فهو منهم »¹، لدرجة أنهم كفروه ومتى طرق الكفر وجب العزل².

اتخذ عبد الملك الحيلة لتكبيد العدو أكثر ما يمكن من الخسائر، عبر التدابير التالية:

أ- استخدام الأسلحة الغير معلنة ونقصد بها الجاسوسية، حيث اندست وسط الحملة عيون مغربية تقوم بإخبار القيادة العليا السعدية بأخبارها وأعدادها وتحركاتها، منذ انطلاقها من لشبونة إلى أن وصلت إلى ميدان المعركة.

ب - نهج استراتيجية المراوغة والدهاء العسكري، ويتبن هذا من خلال الرسائل التي وجهها لدون سباستيان :

الرسالة الأولى : وجهها عبد الملك لدون سباستيان بعد نزوله بطنجة، تظاهر فيها بعدم قدرته على خوض المعركة ويدعو فيها العاهل البرتغالي للتفاوض قائلا : « إن ما تعترضه من محاربي في قعر داري ظلم وتعد غير مقبولين، وأنا لا أضمر لك شرا، ولم أقم بشيء ضدك ... لا تظن أن الجبن هو الذي يملئ علي ما أقول، فإن فعلت فإنك تعرض نفسك للهلاك ... وإني مستعد للتفاهم معك رأسا لرأس في المحل الذي تريده ... وإني لأفعل هذا سعيا في عدم هلاكك المحقق عندي ... واعلم أن لك في حاشيتك نبلاء يشيرون عليك بآراء فاشلة .. »³، وكان الهدف من هذه الرسالة هو إطالة الفترة التي تبقاها القوات البرتغالية في الشاطئ، حتى يتمكن عبد الملك من تجميع قواته .

1 سورة المائدة، آية 51.

2 الإفراني، محمد الصغير المراكشي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الرباط، 1999، ص. 128 - 138.

I, p. 60.. - S.I.H.M, Iere partie, France, Vol3

الرسالة الثانية : وفيها نوع من الاستفزاز والتلويح بالحرب، وكانت في أعقاب دخول الجيش البرتغالي في مناوشات مع القبائل الجبلية القريبة من أصيلا، فبلغ الخبر إلى عبد الملك وهو بمراكش، فكتب دون سباستيان قائلاً: « إن سطوتك قد ظهرت في خروجك من أرضك وجوازك العدو، فإن تبثت إلى أن نقدم عليك، فأنت نصراني حقيقي وشجاع، وإن أنت رجعت إلى بلادك وحقرت بعض الرعية قبل أن يقاتلك أمير مثلك فأنت يهودي بن يهودي»¹.

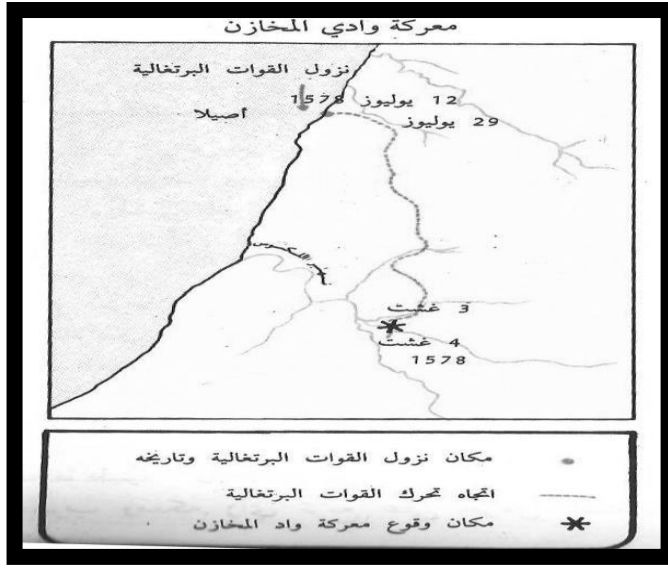
الرسالة الثالثة : وكانت في الوقت الذي أتم فيها عبد الملك استعداداته للحرب ووصل إلى منطقة القصر الكبير متخذاً منها مقر قيادته - وكان آنذاك منهكا بمرض الكوليرا الذي لقي منه حتفه يوم المعركة كما جاء في تقرير طبيبه اليهودي الخاص². وسيحاول عبد الملك من خلال هذه الرسالة استدراج الدون سباستيان إلى الداخل لإبعاده عن مراكز تموينه، فكتبه قائلاً: « إني قد جئتكم من مراكش ورحلت إليك ستة عشرة مرحلة وأنت لم تقدم إلي مرحلة واحدة ... »؛ وكان الهدف من هذا الخطاب هو جر الجيش البرتغالي إلى الحرب بالميدان الذي اختاره عبد الملك بكل عناية ألا وهو سهل وادي المخازن الواقع حالياً بمنطقة السواكن وهو المجال الذي تسكن به قبيلة الخلط الهبطية بإقليم العرائش .

ونستطيع من خلال الخريطة أدناه تتبع خط مسار تحرك الجيش البرتغالي، والمجال الذي وقعت به معركة وادي المخازن.

1 مجهول، مصدر سابق، ص. 60.

2 وضعية عبد الملك ليلة معركة وادي المخازن، ترجمها طبيبه اليهودي الخاص في رسالة كتبها بالإسبانية من فاس إلى أخيه بتاريخ 16 غشت 1578، يقول فيها «... وفي اليوم الثالث أقمنا معسكراً على مقربة من نهر تنسيفت... وأكل الملك شيئاً من السمك، وشرب الماء كثيراً، كما تناول قليلاً من البطيخ، فأتخمه ذلك وغلبه القيء الذي أعقبته حمى ومغص معوي... ومع هذا تابعا المسير، وانتهينا إلى مدينة سلا وهناك تحسنت صحة الملك، ولما غادرناها بعد ثلاثة أيام، جعلنا نسير طول اليوم، إلى أن انتهينا إلى المعصورة... التي اجتمع فيها فرسان كثيرون لم يشاهد مثلهم من قبل بهذه المملكة، حتى أن عددهم قد بلغ قرابة 7 آلاف فارس وفيهم رجال المكاحل... فلما وصل إليها الملك أحس بحمى صاحبها قيء شديد، فتأسفت لذلك كثيراً، وكان قد تسبب في هذا شدة الحر التي تعرض لها، وإكثاره من شرب الماء بها... ثم رأى من الأنسب أن يشرب الماء البارد، ويولج أصابعه في جوفه ليتقيأ... وكنت أبكي... وفي اليوم الثالث أصيب الملك بفواق شديد وبارتعاش في يديه، وخاصة في اليمنى منها مع ثقل في اللسان، جعلني أفهم في الحين المصيبة التي ستنزل به... ثم اشتد العطش على الملك، لدرجة أن صار لا يطفئ ظمأه ماء، حتى ولو سقي أنهار الدنيا كلها لما كانت ترويه... وسرنا على هذا النحو إلى أن كان اليوم السابع، حيث شاء الله بفضل وصفيتين جعلتهما له، أن أذهب ذلك العطش، وعادت إليه شهية الأكل... فلما كان اليوم التالي، فاتح أغسطس، جاءنا خبر بشروع ملك البرتغال في المسير نحونا، خارجاً من مدينة أصيلا، فرفعنا معسكراً وأقمناه إلى جانب القصر الذي توجهنا إليه في اليوم الثالث منه، فجاءتنا أخبار مفادها أن العدو يريد اجتيازاً للقطرة التي كانت مقامة على النهر المسمى بواد المخازن...». أنظر :

- ابن تاوويت، محمد، وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن، مجلة دعوة الحق السنة 19، العدد 8، غشت 1978، ص 47 - 56.



يبدو من خلال الخريطة، المعطيات التالية:

أ - أن الجيش البرتغالي قضى 23 يوما لقطع مسافة، لا تتعدى 70 كلم في أغلب الأحوال، ويمكن تفسير ذلك بما يلي :

أ - ضخامة الجيش البرتغالي¹.

ب - كثرة العتاد والعربات والمؤن والأمتعة، لأن البرتغاليين اعتبروا أنفسهم في نزهة إفريقية، وقد وقع التخلي عن البعض منها لأنها اعتبرت معيقة في التحرك.

ج - الشك والتردد اللذان كانا يساوران القيادة العليا البرتغالية في الطريق إلى سهل وادي المخازن، خصوصا وأن الجيش لا دراية له بالمسالك التي كانت شاقة (مقدمة جبال الريف)، فكان ينتظر أخبار الكشافين أو Eclaireurs ثم يستمر في التحرك .

د - شراسة مقاومة أهالي المناطق التي كانت تمر منها الحملة إلى وادي المخازن.

فما هي خصائص الميدان الذي جرت فوقه أطوار هذه المعركة، وكيف استغل عبد الملك المعتصم استراتيجية النهر عسكريا لربح المعركة ؟

1 وقد أورد المؤرخون تقديرات مختلفة بشأن أعداد الجيش البرتغالي، فقد بلغ عدده 125000 جندي (وأقل ما قيل فيه أن عدده 80 ألفا)، والالاف من الخيل وأكثر من أربعين مدفعا، مدعوما بقوة من جيش حليفه المتوكل والتي تتراوح بين 3000 و6000 رجل، هذا بالإضافة إلى 1000 عربي وحشد لا نهاية له من الغلمان والحشم والرفيق المغاربة وغيرهم، كما كان يشتمل على مرتزقة من الإسبان والفرنسيين والإيطاليين والألمان وغيرهم وفوج عظيم من بنات الهوى . انظر:

DECASTRIES(H), *sources inédites de l'histoire du Maroc*, France I, p. 548.

3. البعد الاستراتيجي - العسكري لوادي المخازن ومجريات المعركة

يطلق عادة على المعارك اسم الموقع الذي كان مسرحا لها، وبما أن الأودية شكلت محطات مهمة في تحرك الجيوش ونزولها، فإنها منحت اسمها للمعركة التي تقع بالقرب منها أو على ضفافها، ولعل من أشهرها وادي المخازن الذي شهد اندحار البرتغاليين وصعود نجم السعديين؛ فما هي الخصائص الطبوغرافية والمناخية لوادي المخازن؟ وما هي الاستراتيجية العسكرية التي اعتمدها مهندس هذه المعركة عبد الملك المعتصم للإيقاع بعدوه دون سباستيان حتى لقي حتفه هو وحليفه محمد المتوكل بهذا الوادي؟

سهل وادي المخازن، هو سهل مثلث منبسط من الأرض، تكثر فيه الأنهار وتحيط به من ثلاث جهات؛ وادي لوكوس الذي يمدّه من الضفة اليمنى وادي ريسانة ووادي المخازن، وهذا الأخير يمدّه من الضفة اليسرى وادي وارور.

وأهم ما يميز طبوغرافية هذا الميدان :

أ - هو وجود السبخات والبرك التي تكثر في فضاء المعركة المكون من وادي وَاَرْوَزْ، وهذا الفضاء بأجمعه يسمى تَامْدَة، ويعرفه الحسن ابن ريسون في كناشته المعروفة بـ فتح التأييد في مناقب الجد وأخيه والوالد¹، بأنه هو المنطقة التي جرت بها المعركة التي تعرف عند معاصريها باسم معركة تامدة (وادي المخازن)، وهذا ما يؤكد المؤرخ الإسباني خوان دي سيلفا Juan De SILVA الذي شارك في المعركة ذلك بقوله : «إن اسم المكان الذي جرت به هو تاميدا، وكلمة تامدة معناها باللهجة المحلية المستنقع»؛ فميدان المعركة إذن هو أرض المروج والسبخات التي تحتفظ بالمياه حتى في فصل الصيف marécages .

ب - أن هذا الميدان يتأثر بحركة البحر من مد وجزر؛ ففي حالة الجزر، وبعد انحسار المياه عنه تبقى به العديد من الحفر، ولعل هذا هو ما كان سيعيق تراجع القوات البرتغالية في حالة انهزامها وهروبها من ميدان المعركة. لكن المعركة وقعت وقت المد حيث تغطي المياه سهل وادي المخازن، ولنا في المصادر الأصلية لتاريخ المغرب شواهد عديدة تتحدث عن غرق أعداد كبيرة من المقاتلين البرتغاليين في النهر بعد الهزيمة وهو في حالة المد، تقول إحدى النصوص : « فقد قطعت أمامهم (البرتغال) طريق الانسحاب بسبب المد الذي ظهر على نهري اللوكوس

1 تم إخراج هذه الكناشة من المخطوط إلى المطبوع من طرف الباحث محمد المرابط. أنظر: - المرابط، محمد، فتح التأييد في مناقب سيدنا الجد وأخيه والوالد للحسنين ابني سيدي أحمد بن ريسون (ت 1055هـ)، دراسة وتحقيق، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب - تطوان، 2010.

والمخازن وأصبحت غير قابلين للاجتياز، فوجد المحاربون البرتغاليون أنفسهم محصورين بطريق مسدودة، ومطوقين من جميع الجهات؛ مما أدى إلى التشتت وإلى الهروب غير المنتظم، مع كل نتائج المساوية والمتنوعة»¹.

ونقرأ عند الإفراني عن غرق المتوكل: «وبحث في القتلى عن محمد بن عبد الله (المتوكل) فوجد غريقاً في وادي لكس، وذلك أنه لما رأى الهزيمة، ألقى بنفسه فيه ورام قطعه فغرق فيه»²، وهو نفسه الحدث الذي نتحدث عنه المصادر الأصلية لتاريخ المغرب، تقول إحدى النصوص: «أما السلطان السابق مولاي محمد (المتوكل)، فقد أطلق العنان لحصانه باتجاه أصيلا محاولاً النجاة وأراد اجتياز وادي المخازن. بيد أن النهر المليء بالوحل، كان ذا مد عال بفضل القرب من المحيط الأطلسي. وللخلاص من الوحل، ألقى الحصان من فوق متنه فارسه الذي لم يكن يعرف السباحة فغرق»³.

ج - الطقس بهذا الميدان شديد الحرارة والرطوبة المفرطة بفعل عملية التبخر وخصوصاً في فصل الصيف، حيث يرد في المصادر البرتغالية ما يفيد ذلك مثل: «تفاقم تأثير الحرارة - حرارة خانقة - الشمس المغربية الحارقة - الحرارة الشديدة»⁴. وفي بيئات طبيعية كذلك الموجودة في المستنقعات تنشأ ظروف صحية غير ملائمة لصحة الجنود نظراً لتوفر الرطوبة والغطاء النباتي مما يشكل بيئة مناسبة لتكاثر الحشرات كالبعوض والعناصر الناقلة للأمراض، وهو ما كان له بالفعل تأثير سلبي على القوات البرتغالية وحلفائها من ألمان وبلجيكيين وهولنديين الذين جاؤوا من مناطق باردة.

د - أن ميدان المعركة كان وقتها يتوفر على معبر، وهو الجسر الوحيد المتواجد على وادي المخازن، وستنجح خطة عبد الملك من أن يجعل القوات البرتغالية تعبره، لتعسكر على الضفة اليسرى من الوادي في المثلث الذي تتألف زاويته الغربية من التقاء النهرين وادي المخازن ووادي وارور، هذا في حين كانت الجيوش السعدية قد وصلت إلى هذا المثلث واتخذت مواقعها⁵ (انظر الرسم البرتغالي الذي خلفه نيتو عن المعركة وكذا ترجمته العربية).

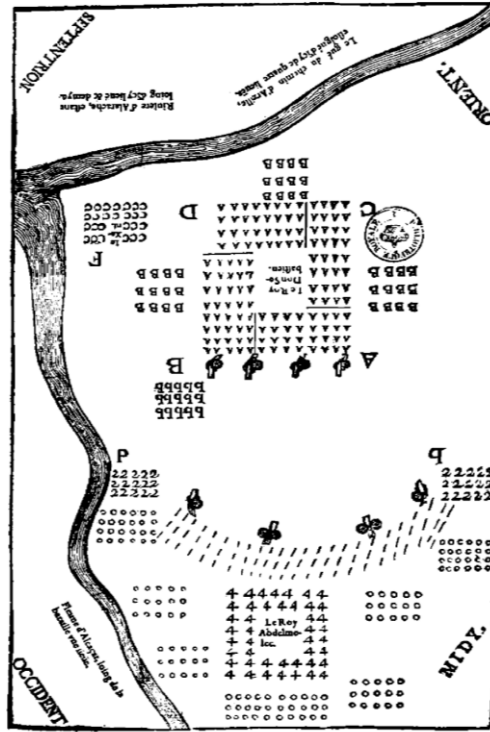
1 نكروف، يونس، معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة، ترجمة وفاء موسى ويشو وحسين حيدر، منشورات عويدات، بيروت - باريس، 1987، ص. 192.

2 الإفراني، مصدر سابق، ص. 142.

3 نكروف، مرجع سابق، ص. 191.

4 مجموعة من الإشارات المتفرقة، أنظر نكروف، مرجع سابق، ص. 172-177.

5 من الصعب تحديد عدد الجيش المغربي، لأنه كان يزيد كثرة كلما طوى مرحلة بما ينضم إليه من المجاهدين والمتطوعين أثناء الطريق بالإضافة إلى الجنود النظاميين والقوات التي بعثها باشا الجزائر لصد الغزو =



BATAILLE DE EL-KSAR EL-KHIBR, D'APRÈS FRAY LUIS NIETO
FAC-SIMILE DU PLAN ADRESSÉ À LA TRADUCTION FRANÇAISE (1579).

Éléments sous droits d'auteur

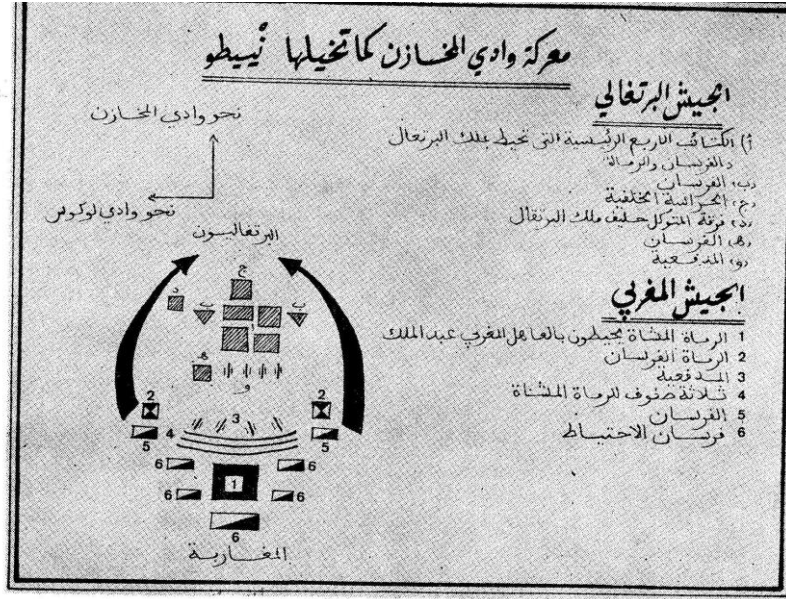
يبدو من خلال الرسم الذي تركه أحد البرتغاليين ويدعى نيتو Fray Luis NIETO عن المعركة أن المدفعية كانت تتقدم الصفوف في كلا الجيشين، بينما احتشد الجيش المغربي تاركا وادي المخازن

= البرتغالي. وعلى الرغم من ذلك، فيقدره البعض ب 40000 مقاتل، أكثرهم من الفرسان المدربة على خوض المعارك الخاطفة، عدد المدافع 34 مدفعا، والملاحظ هو أن السعديين قد حافظوا قبل المعركة على الخطط العسكرية التي كانت معروفة زمن المرينيين والوطاسيين، إلا أن عبد الملك نظم جيشه على غرار الجيش الإنششاري، مع استعمال مجموعة من الرتب العسكرية العثمانية كالبكباشي، اليوزباشي وغيرها. كما تم ترتيب قواته باعتماد إستراتيجية محكمة على شكل هلال، يقوم السلطان في وسطه، ويحيط به الرماة من المشاة يتقدمهم جيش الأندلس ثم المغاربة، وفي طرفي الهلال فرقتان كل منهما مؤلفة من 10000 فارس، وفي المقدمة يتركز رجال المدفعية (الطوبجية)، وهم حتى هذه الفترة أتراك في عامتهم، وفي المؤخرة على مسافة أبعد باقي الخيالة في فرق صغيرة احتياطية، إضافة إلى العديد من العلماء والصلحاء ورجال الزوايا. أنظر في هذا الصدد إلى المراجع التالية :

- مجهول: مصدر سابق، ص. 62.
- كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط، 1972، ص. 105.
- حركات، إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء، 1987، ص. 71.

عن شماله كحجاز وغطاء تاركا المجال لدون سباستيان وجيشه ليتخطى الوادي ليبقى النهر من ورائه¹، وهي خطة محبوكة بإتقان من أجل الإيقاع بالعدو بقطع خطوط التموين عليه.

الرسم مأخوذ عن مقال لعبد الهادي التازي تحت عنوان معركة وادي المخازن بدون رقابة، دعوة الحق، السنة 19، العدد، 1978.



وكانت المسألة المهمة في حسم المعركة هو نصف السعديين لهذه القنطرة، حيث تتفق كافة المصادر على أنه في ليلة المعركة أرسل عبد الملك أخاه أحمد على رأس كتيبة عسكرية لنفسه²، والنتيجة هو ألا تبقى أمام الجيش البرتغالي أي وسيلة للفرار أو التراجع خصوصا في ظل غياب معرفة برتغالية بالميدان الذي دارت فيه الحرب. لهذا يمكن القول بأن هدم الجسر

1 DECASTRIES (Henry), *les sources de l'histoire du Maroc de 1530 à 1845*, 1ère série, dynastie Saadienne, T. I, Paris, 1906, p. 497.

إن رسم نيبطو عن معركة وادي المخازن هو باللغة البرتغالية، وهو نفسه الذي ترجمه الأستاذ عبد الهادي التازي، واستخدمه لتوضيح مجريات معركة وادي المخازن وكيفية تنظيم الجيوش المتحاربة البرتغالية والسعدية في مقال صدر له بمجلة دعوة الحق تحت عنوان "وقعة وادي المخازن بدون رقابة"، دعوة الحق السنة 19، العدد 8، غشت 1978، ص 28.

2 مجهول، مصدر سابق، ص. 63 - 64

الإفراني، مصدر سابق، ص. 140

الناصرى، أحمد، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، الدار البيضاء، ج. 5، 1955، ص. 80. يقول المؤرخ المجهول صاحب تاريخ الدولة السعدية الدرعية التكمдарتية: «... ولما انهزم النصارى ورجعوا إلى وادي المخازن هاربين يؤمون القنطرة لم يجدوا إلا أثرها، فصاروا يخوضون الوادي ومن دخل لا يخرج وأحاط بهم المسلمون رحمهم الله يقتلوا (كذا) عن آخرهم والحمد لله رب العالمين وأسروا منهم عددا يسيرا»

وعملية المد التي عرفها النهر عند نهاية المعركة ساهمتا في الرفع من وقع الهزيمة أكثر منه في إحداث الهزيمة¹.

لقد أثبتت استراتيجية النهر نجاعتها أمام القوات البرتغالية التي اندحرت كلياً يوم الاثنين 4 غشت 1578م، في مواجهة لم تدم إلا 45 أو 51 درجة حسب ما ورد في النصوص عند المؤقتين أي أربعة ساعات و 20 دقيقة، لم يكن النصر فيها مصادفة بل لمعنويات عالية ونفوس شعرت بالمسؤولية ولخطة مدروسة ومحكمة باعتماد تكتيك خداع العدو على الطريقة الصينية التي تقضي بـ: « أن كل حرب تقوم على أساس الخداع، ولهذا حين تكون قادراً على الهجوم، تظاهر بعدم القدرة، وحين تقوم بتحريك القوات تظاهر بأنك لا تقوم بأي فعل »².

كانت معركة وادي المخازن والتي اعتبرها فيرناند بروديل «آخر الحملات الصليبية التي قامت بها القوى المسيحية في البحر المتوسط»³، أكبر مصيبة في التاريخ البرتغالي، فقد انتهى حكم أسرة أفيس AVIS وفقدت البلاد عظمتها واستقلالها، أما المغرب فلم يكتسب منها إلا قوة رمزية.

وكان من غرائب هذه المعركة سقوط ثلاثة ملوك، فقد قتل دون سياستيان على ساحة الوغى، وغرق السلطان المخلوع (المتوكل) في الوادي وهو يحاول الفرار، ومات السلطان عبد الملك على فراش المرض و رعى الحرب دائرة، ولم ينفذ الناس من ساحة القتال إلا وقد بايعوا الأمير مولاي أحمد الذي اتخذ لقب المنصور، وبذلك كان هو المستفيد الأول و الأخير من المعركة ومعلنا عن بداية دخول المغرب للعصر الحديث.

1 الزويبر، لبنى، الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين (916 - 1069 هـ / 1510 - 1659م)، الرباط، 2016، ص. 141.

2 صون تزو، مرجع سابق، ص. 118.

3 BRAUDEL (Fernand), *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II*, Paris, 1976, T. III, p. 346.

البليوغرافيا

1. إبراهيم شحاتة حسن، وقعة وادي المخازن في تاريخ المغرب، الدار البيضاء 1979.
2. ابن تاويت، محمد، وثيقتان هامتان عن معركة وادي المخازن، ضمن عدد خاص عن معركة وادي المخازن بمناسبة مرور 400 سنة على هذه المعركة بمجلة دعوة الحق السنة 19، العدد 8، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط، غشت 1978، 47 - 56.
3. الإفرائي، محمد الصغير المراكشي، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، تقديم وتحقيق عبد اللطيف الشاذلي، الرباط 1999.
4. التازي، عبد الهادي، وقعة وادي المخازن بدون رقابة، ضمن عدد خاص عن معركة وادي المخازن بمناسبة مرور 400 سنة على هذه المعركة بدعوة الحق السنة 19، العدد 8، غشت 1978، 27 - 29، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. الرباط، غشت 1978.
5. الجيلالي، عبد الرحمن بن محمد، تاريخ الجزائر العام، بيروت 1980.
6. حركات، إبراهيم، السياسة والمجتمع في العصر السعدي، الدار البيضاء 1987.
7. حكيم، محمد عزوز، مساهمة رباط تازروت في معركة وادي المخازن، مطبعة الساحل، الرباط 1989.
8. دي طوريس (دييغو)، تاريخ الشرفاء، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، سلا 1988.
9. زنيبر، محمد، معركة الملوك الثلاثة، ضمن مذكرات من التراث المغربي، الجزء الثالث من تمثين الدولة إلى المخاطر، (1248. 1666م)، الرباط 1985.
10. الزويبر، لبني، الماء والحرب بالمغرب زمن السعديين (916. 1069هـ/ 1510. 1659م)، الرباط 2016.
11. الصلابي، محمد علي، الدولة العثمانية (عوامل النهوض وأسباب السقوط)، بيروت 2001.
12. صون تزو، فن الحرب على الطريقة الصينية، ترجمة رؤوف شبايك، القاهرة 2011.
13. الغربي، محمد، بداية الحكم المغربي بالسودان الغربي، بغداد 1982.
14. الفشتالي، عبد العزيز، مناهل الصفا على مآثر موالينا الشرفاء، تحقيق عبد الكريم كريم، الرباط 1972.
15. كريم، عبد الكريم، المغرب في عهد الدولة السعدية، الرباط 1972.
16. مارمول (كاربخال)، إفريقيا، ترجمة محمد حجي، محمد زنيبر، محمد الأخضر، أحمد التوفيق وأحمد بنجلون، الرباط 1989.

17. مجهول، تاريخ الدولة السعدية التاغمادارتية، تحقيق عبد الرحيم بنحادة، مراكش 1994.
18. المرابط، محمد، فتح التأييد في مناقب سيدنا الجد وأخيه والوالد للحسنين ابني سيدي امحمد بن ريسون (ت 1055هـ)، دراسة وتحقيق، جامعة عبد الملك السعدي، كلية الآداب . تطوان، 2010 (رسالة غير منشورة).
19. نكروف، يونس، معركة وادي المخازن بين الملوك الثلاثة، ترجمة وفاء موسى ويشو وحسين حيدر، منشورات عويدات، بيروت - باريس 1987.

1. AGRIPPA D'AUBIGNE (Théodore), *Histoire universelle*, Paris 1873-1877.
2. BRAUDEL (Fernand), *La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II* ; Paris 1976
3. DE CASTRIES (H), RICARD (R), DE LA VERONNE (Ch), DE CENIVAL (P) et LOPES (D), *Les Sources Inédites de l'histoire du Maroc (Espagne)*, T, II ; Paris 1956.
4. DE CASTRIES (Henry), *Les sources inédites de l'histoire du Maroc*, 1^{ère} série (dynastie Saadienne), Paris 1913.
5. VAN DURME (Maurice), *Archives Générales de Simancas*, Bruxelles 1964 – 1968.

RIVAGES

Revue scientifique à comité de lecture

N° 3-2019

Revue semestrielle, scientifique à comité de lecture, éditée par la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Cadi Ayyad – Marrakech - Maroc

Directeur

Doyen de la Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

Abderrahim BENALI

Coordination générale

Jamal RACHAK

Comité Scientifique

GRAVARI BARBAS Maria, IREST, Université Paris 1 Panthéon-Sorbonne, France, **ELLOUMI Mohamed**, INRAT, Tunisie, **LAOUINA Abdellah**, CERGéo, Université Mohamed V Rabat, **DEBARBIEUX Bernard**, Université de Genève, Suisse, **NAVARRO PALAZON Julio**, Escuela de Estudios Arabes des Granada, CSIC, Espagne, **SKOUNTI Ahmed**, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, Rabat, **GIRAUT Frédéric**, Département de Géographie, Université de Genève, Suisse, **HERNANDEZ ARMENTEROS Salvador**, Universidad de Granada, Espagne, **BOUBRIK Rahal**, Département de Sociologie, Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, Université Mohamed V de Rabat, **TOZY Mohamed**, UMRVIP et Sciences po, Aix en Provence, France, **PULVAR Olivier**, Université Antilles-Guyane, Centre de Recherche sur les Pouvoirs Locaux dans la Caraïbe – CNRS UMR 8053, **HILLALI Mimoun**, Institut Supérieur International de Tourisme, Tanger, Maroc, **PERALDI Michel**, directeur de recherche au CNRS et Centre Jacques Berque pour le développement des Sciences Sociales à Rabat (Maroc), **BOUMAZA Nadir**, Université Pierre MENDES France- Grenoble 2, **LANDEL Pierre – Antoine**, CERMOSEM, UJF, Mirabel – France, **PECQUEUR Bernard**, Institut de Géographie Alpine, PACTE (UMR CNRS 5194 – Université J. Fourier, Grenoble – France).

Comité de Rédaction :

Abderrahim BENALI - Jamal RACHAK - Khadija ZAHI- Mohamed MOUHOUB
Said BOUJROUF - Tourya BOURKANE.

Adresse

Faculté des Lettres et des Sciences Humaines, B.P. 3737
Amerchich – Marrakech 40000 Maroc
Site web. <http://www.flm.uca.ma.ac> - Email : revueflm@gmail.com
Tél. 00212524302742 - Fax 00212524302039

Dépôt Légal : 2018PE0010

ISSN : 2605-6410

Le tableau en couverture est de l'artiste peintre Mahi Binebine.

Les contenus des textes publiés dans la revue n'engagent que leurs auteurs.



جامعة القاضي عياض
UNIVERSITÉ CADI AYYAD

كلية الآداب والعلوم الإنسانية
Faculté des Lettres et des Sciences Humaines

Revue des Sciences Humaines

RIVAGES

Revue scientifique à comité de lecture



N° 3 - 2019